مركز البيدر للدراسات والتخطيط
Al-Baidar Center For Studies And Planning

قراءة في كتاب
الإمبراطورية الأمريكية والإغارة على العراق

عبد الخالق كاظم ابراهيم

إصدارات مركز البيدر للدراسات والتخطيط

مقدمة:

يُعدُّ هذا الكتاب من المؤلفات ذات القيمة العالية في مجال التاريخ السياسي وكذا أهميته ناشئة من أهمية كاتبه ومؤلفه الأستاذ محمد حسنين هيكل أحد أشهر الصحافيين المصريين والعرب في القرن العشرين، حيث بدأ عمله الصحفي منذ فترة مبكرة من حياته، وقد ساهم في تشكيل وصياغة السياسة المصرية منذ فترة الملكية، وكذلك السياسة العربية. وهو من أبرز الباحثين في توثيق الأحداث العربية وتدوينها، منذ ستينيات القرن العشرين بمقالاته الأسبوعية الشهيرة في جريدة الأهرام المصرية. وصدرت له من الكتب والمؤلفات ما غطى تاريخ العرب السياسي المعاصر بأحداثه الجسام وتحولاته، وحروبه، وانقلاباته، وتقلباته.

لقد أوجز الكاتب ملخص كتابه في مقدمته بجملتين قائلاً: «هذه الفصول قصة وقائع سياسية قائمة، وهي في نفس الوقت شكل أحوال سياسة قادمة»، والجملتان تكشفان عن رؤيته للأحداث التي ستتشكل في السنوات القادمة في العالم عموماً وفي الوطن العربي خصوصاً.

يتناول الكتابُ محطاتٍ مهمةً من السياسة المستقبلية للولايات المتحدة في القرن الحادي والعشرين وعلاقتها بغزو العراق واحتلاله، ويكشف عن السياسة الأمريكية قبل الاحتلال وما بعد الاحتلال، والنظر في سياسة الرئيس الأمريكي بوش الابن وعلاقتها بالغزو على العراق، ممهداً لها بقراءة تاريخية حول مسيرة الولايات المتحدة في سياقها التكويني. إذ تطرق لعدد من الموضوعات، فبدأ بسرد سريع وموجز لتاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، وبعدها قام بتحليل العقلية الأمريكية وخلفيتها الثقافية؛ وأبرز ما يميزها، بدءاً من المؤسسين وحتى الحرب العالمية الأولى. وسلط الضوء على ميزان القوى في العالم بعد الحرب العالمية الثانية، حيث أوضح الحقائق الجديدة التي أُستحدثت على الساحة الدولية، واستغلال أميركا تلك الفرصة لغرض فرض هيمنتها على الدول الضعيفة آنذاك للتحول إلى إمبراطورية بعد إن كانت دولة.

ثم يتطرق إلى شبكة العلاقات التي تربط بين الصناعات العملاقة الخاصة بالسلاح والبترول والسيارات وشركات الطاقة وبين القرار السياسي لأمريكا، ويصف المدى الذي وصلت إليه هذه الشركات من تحديد شكل السياسات الخارجية للولايات المتحدة وصنع القرار الأمريكي، لما تمتلكه من إمكانات هائلة، حيث تمثل مبيعات تلك الشركات 25% من الناتج العالمي، ويتجاوز حجم مبيعات خمس شركات أمريكية الناتج القومي لـ 182 دولة في العالم، ويفوق دخل شركة اكسون

موبيل للبترول دخل دول الأوبك (مجموعة الدول العربية المصدرة للبترول) مجتمعة.

أمّا عن الغزو الأمريكي للعراق، فقد تناول الأسباب الظاهرة والدوافع الباطنة التي دفعت الولايات المتحدة للإغارة على العراق. وأنَّ هذا الغزو لم يكن إلّا حرباً أولى في المنطقة سعت إليها أميركا في إطار مخطّط سرّي لبناء شرق أوسط جديد تعيش اليوم المنطقة على إيقاعاته ونتائجه كما يعتقد، وما يحدث اليوم من حروب ودمار هو أهم أوجه سيناريو «الفوضى الخلاقة» الذي وضعته الإدارات الأمريكية المتعاقبة على مدى الـ 40 سنة الماضية لغرض تأمين سيادتها المطلقة على العالم. ومن خلال ذلك يتبين أنَّ الكاتب أراد التمهيد لتاريخ السياسة الأمريكية والقواعد التي تسير عليها قبل الدخول في تفاصيل الغزو الأمريكي للعراق عام 2003، ليبين في ضوئها أنَّ هذا الغزو هو تكملة لمسار سابق بدأته أمريكا منذ نشوئها كدولة اعتمدت -بحسب قوله - الإغارة والقرصنة على المجتمعات الأخرى في محطات تاريخية مختلفة، وأيضاً هو بداية لمسار جديد في منطقة الشرق الأوسط كانت نقطة انطلاقه من العراق.

مهمة تفتيش في الضمير الأمريكي

يشير الكاتب هنا إلى ما أسماه مشكلة المشاكل بالنسبة للعالم العربي متمثلة في علاقتها مع الإمبراطورية الأمريكية باستنارة وكفاءة، ويرى أنها مسألة تتضمن التعامل مع شبه مستحيلات تبدو كأنها أضلاع صندوق مغلق يتمثل الأول: بصعوبة إقامة صداقة حقيقية لأنها فرصة أفلتت وتبددت عملياً سنة 1948 بعد الحرب العربية – الإسرائيلية الأولى. والثاني: خطورة الدخول في عداء مطلق لأنه تحدٍ لا تستطيع الأمة احتماله كونه – للزمن المرئي – فوق طاقتها ويتعدى مواردها. والثالث: منزلق الاندفاع إلى النهاية في مثل هذا العداء بدون حد؛ لأنه يصل بأصحابه إلى الكراهية العاجزة، وهي وصفة فشل أكثر منها بشرى نجاح. أمّا الرابع: فهو استحالة الصبر في حال توهم العرب أنَّ بإمكانهم تجاهل أمريكا وتركها لعوامل الزمن تعريها وتكسر شوكتها؛ لأنَّ لها سطوتها وبأسها في قلب العالم العربي بطلبه مرة أو بطلبها مرات أخرى.

ويخلص إلى القول أنَّ الدول العربية اليوم قريبة جداً، إلى درجة الالتصاق، من الإمبراطورية الأمريكية – بعيدة جداً إلى درجة الانفصام عن أي عقل وفعل. ويشبهها بالمأساة الإغريقية، فهو يرى أنَّ مؤدّى تلك العلاقات صراع لا يصح أن يُترك وشأنه، وإنما يلزم إدارته.. يدار بالرشد مع الوعي بأنه سوف يطول ويشتد ويزداد خشونة وقساوة. مؤكداً أنَّ السياسة الأمريكية التي تبدو – في تلك

اللحظة- أمام العرب عاصفة من العنف الجامح، إلّا أنَّ ذلك لا ينبغي أنْ يخيف ويغري بالفرار، معتمداً في ذلك على دروس التاريخ في حتمية سقوط الإمبراطوريات رغم أهمية الحرص والتدقيق في حالة الإمبراطورية الأمريكية؛ كونها فصيلة تختلف عما سبقها بخصائص ومميزات لم تتوفر لغيرها من الإمبراطوريات على مسار التاريخ كونها إمبراطورية على الطريقة الأمريكية.

إنَّ الاختبار الحقيقي أمام العرب في تلك المرحلة وما بعدها يتعلق بمدى استعدادهم للوقوف مع قوى عديدة في العالم لوضع حد لتجاوزات الإمبراطورية الأمريكية، وإجراء حسابات دقيقة لعناصر الصراع ليس هدفها هزيمة القوة الأمريكية، وإنما بهدف ترويضها بحيث تخضع لحكم القانون؛ لأنَّ الإمبراطوريات الكبرى في التاريخ لا يهزمها خصومها في صراعات مباشرة إلى النهاية، وإنما تتولى هي هزيمة نفسها بالإفراط في استعمال القوة وفي الغرور.

ومما يطمئنُ العربَ إلى حد ما أنهم ليسوا وحدهم في مواجهتها، إلّا أنهم أكثر من غيرهم يحتاجون إلى مهمة تفتيش في أعماق شخصية وضمير هذه الإمبراطورية؛ فحصاً للأصول والجذور ينزل إلى باطن التربة مع الاعتراف بصعوبته أحياناً، وبحيث لا يكونون – كما وقع لهم مرات – مهزومين بلا مبرر، وأسرى بلا مقاومة، وضحايا بلا ثمن. ومهمة التفتيش تلك ليس هدفها المحاكمة والإدانة، وإنما يكون مطلبه الفهم، خصوصاً إذا كانت المحاولة في ضمير إمبراطورية كاسحة (مفرطة في قوتها).

من الدولة الى الإمبراطورية:

وهنا يتناول نشأة أمريكا التي كانت بدايتها مهجراً ومنفىً وملاذاً لعيِّنات مختلفة ومتناقضة من البشر من المكتشفين والمغامرين الذين اكتشفوا العالم الجديد وما فيه من ثروات هائلة أوّلُها الذهب، وتوالت بعدها الهجرة إلى ذلك العالم الذي يحتاج إلى قوة عمل، فأرسل إليها ملوك أوربا نزلاء سجونهم ومن ثم موجة أخرى من المهاجرين تمثلت بالمضطهدين دينياً وسياسياً في أوربا، وتوالت بعدها الهجرات فنشأ مجتمع فريد خليط ومتنافر وقلق – متحفز ونشيط تجمعه المجازفة، ومن أجل الخلاص من السكان الأصليين السود حصل هناك شبيه لما حصل في فلسطين حيث كان الحل الإسرائيلي مثل الحل الأمريكي الذي ينطلق من مقولة: (قتل الزوج والاستيلاء على ممتلكاته واغتصاب العروس باحتلال الأرض). حيث يقول الكاتب أنَّ أمريكا كانت سباقة في هذا السلوك وقد مارسته إلى النهاية وما زالت تمارسه إلى هذه اللحظة ضد أي عدو حقيقي أو متصوَّر، حيث كان

القانون الأمريكي حتى سنة 1974 يعطي للرئيس الأمريكي سلطة إصدار أوامر قتل تنفذها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية على من يرى الرئيس أنهم أعداء للولايات المتحدة من زعماء العالم. والذي تم إيقاف العمل به من قبل الرئيس (جيرالد فورد) الذي أصدر أمراً رئاسياً يحرم ممارسة قتل الزعماء السياسيين لدول أجنبية وظل سارياً حتى أصدر الرئيس جورج بوش الابن أمراً رئاسياً بالعودة إليه في حرب أمريكا المقدسة الجارية (ضد الإرهاب).

لقد قامت أمريكا على مبدأ طارئ بالكامل لم تعرفه من قبل تجارب نشأة الدول فكان مبدؤها الأول بالتصميم هروباً إلى جغرافية جديدة وانقطاعاً عن تاريخ سبق. وإنهم بحاجة إلى ثقافة وقانون وأخلاق من مصادر تناسب ظروفاً مختلفة عن أي ظرف نشأت فيه دولة من قبل. وتاريخهم الجديد كان مطلوباً منه أن يكون صفحة بيضاء، وحينما بدأ التدوين فإنَّ (قتل الآخر) كان فاتحة أول سطر؛ لأنَّ القتل له وظيفة مزدوجة: ضمان الأمن (وذلك إنساني) – وضمان المصلحة (وذلك حق من وجهة نظر أصحابه). وكان السطر الثاني من تجربة مجتمعات المهاجرين اختراع صيغة أخلاق تدعي البراءة حتى تتخفف من عبء ما اضطرت إليه وتغطي عليه بذرائع وضرورات الاستقرار والتقدم – وبإضافة من الصلوات تمتزج المصلحة بأسطورة من نوع ما. وتمكنت من صنع وتجهيز أعراف أخلاقية تحتاجها المغامرة الأمريكية، وجاء دور التشريع القاضي بأنه (ما هو نافع لأصحابه – قانوني بالضرورة).

إنَّ جذور هذه التجربة يمكن من خلالها فهم المنطق الذي تعتمده السياسة الأمريكية وبالذات في الشرق الأوسط، لاسيما فيما يخص القضية الفلسطينية حيث يتم إلغاء الخلفيات التاريخية واعتماد الراهن الحاضر، ويستشهد الكاتب بذلك في لقائه مع هنري كيسنجر وزير الخارجية الامريكي الاسبق الذي طلب منه أن يحدثه عن مصر وحدها دون الدخول بمسألة القومية العربية، وأن يحدثه عن اللحظة الراهنة دون العودة إلى ما كان قبل ذلك، معتمداً في ذلك على مقولة عربية إن (ما فات مات)، ويشير إلى مقدمة الظهور الأمريكي مع شخصيات اعتمدت القرصنة أو إبادة قبائل بأكملها أو من تجارة البارود؛ لذلك فإنَّ البناة الأوائل للقوة الإمبراطورية الأمريكية كما يصفهم (تيودور روزفلت) بأنهم البارونات اللصوص الذين اشتروا فيما بعد أجمل ميراث الثقافة الأوربية بالدولارات.

وفيما يخص قواعد القانون الدولي التي وضعت دون مشاركة أمريكا وفي غيبتها، فإنها غير ملزمة إلّا في حالة أن تعترف بها تأسيساً على وجود مصلحة أمريكية، وحتى في حالة الاعتراف يصبح

تطبيق القانون انتقائياً، كما في اختزالها سلطة المنظمة الدولية في مجلس الأمن لا سيما في قضية العراق وغيرها من القضايا الأخرى. والدليل على ذلك أنَّ معظم القضايا المطروحة أمام محكمة العدل الدولية مرفوعة ضد الولايات المتحدة. لذلك فإنَّ المرجعية المعتمدة في السياسة الأمريكية تعتمد الفائدة المباشرة، وبهذه المرجعية يمكن تفسير خروج أمريكا من العديد من المعاهدات والمواثيق الدولية.

لقد قامت الدولة الأمريكية في إطار مغامرة تاريخية نادرة لم تستطع أن تجمعها رابطة موحدة؛ لذلك راج ادعاء بأنَّ الوعاء الواحد هو الجسارة، وأنهم الأكبر والأقوى والأوفر غنى، وأنها أرض الميعاد، ومنحة سماوية (نعمة الرب) للأقوياء والقادرين؛ لذلك فهي تعتمد على حساب الربح والخسارة وهذا يفسر مشاركتها في الحرب العالمية الأولى بعد ثلاث سنوات من بدء الحرب، وفي الحرب العالمية الثانية بعد أكثر من سنتين.

وبناء على سياسة (توفير الدم الأمريكي) لا يكون أمام بقية الأطراف في العالم إلّا الذهاب لما هو مطلوب لنيل الرضا وخدمة القرار الأمريكي بلا مراجعة أو مساءلة، وأمّا التردد أو التلكؤ في الإذعان غير مقبول عندها. وعندها يكون لأمريكا حق التصرف منفردة وترتب لنفسها سلطات تحدد هي حجمها ومداها بقرار منفرد بغير شريك. ومن هذا المنطلق يكون من حقها ردُّ العدوان بمثله وضرب مصادر التهديد وردع نوايا الأعداء، ومن حقها أن تختار آخرين تضربهم لكي تؤدب غيرهم فهي حروب (على المزاج) حتى تتم استعراضات العقاب وترى الجهات الأصعب وتتعظ بغير تكاليف أو مصاريف.

ويستشهد الكاتب بالعديد من الوقائع التي تؤكد أنَّ معيار أمريكا في الحكم هو حساب الأرباح والخسائر، ولا تستوعب دعاوى الكبرياء أو الكرامة، وهي على استعداد للتخلي عن أهم رجالها وحلفائها من دون عناء ثقيل على الضمير، كما في تخليها عن أهم رجالها في الشرق الأوسط شاه إيران (محمد رضا بهلوي). وكذلك ما فعلته في مسألة العبيد الذين راحت تجلبهم السفن من إفريقيا أكداساً كالبضائع يموت نصفهم خلال مدة الرحلة بسبب مشاق المحيط وقساوته، وهم مقيدون بالسلاسل معروضون في المزاد والذي وصل عددهم ابتداء من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر ما بين 25 - 30 مليون إفريقي أطبقت عليهم قيود العبودية، وكانوا سبباً في الثورة الصناعية. وعلى الرغم من انتهاء العبودية لكنها تمت دون تصفية آثارها وبقي التمييز العنصري جرحاً غائراً في الوجدان الأمريكي – مسكوتاً عنه- ويشبهها – الكاتب- بمستودع البارود،

لأنه حتى هذه اللحظة دون علاج، لأنَّ الصمت عن الوجع لا يشفيه.

ومن هنا فإنَّ الدولة الأمريكية قامت في جزء كبير منها على جهد آخرين جرى توظيفهم بأسهل الوسائل وأرخص الأثمان، سواء في مجال الفكر وحصولها على مخزون التراث الأدبي والعلمي وحصيلة الفكر السياسي والاقتصادي العالمي بأكمله. وكذلك في مجال العمل ومسألة العبيد، وقد اعتمدت منطق البضائع ومنطق الشركة حين يزيد إنتاجها ويتسع نشاطها ويتخطى حدودَ الإقليم وخطوطَ الماء وحوافَّ القارات ويتطلع إلى السوق البعيدة الواسعة، ومن هذا المنطق تعتمد على عملاء لها يمثلون مصالحها؛ لذلك فعند دخولها إلى أسواق الشرق الأوسط كان المرشحون للوكالة عنها – ممثلين أو متعهدين أو شركاء في التصنيع المحلي- ثلاثة كما يرى الكاتب:

- السعودية (باعتبار أنَّ المصلحة الأميركية الأكبر وهي البترول كامنة تحت رمال صحرائها وبالتالي فهي الأولى نظرياً).

- ومصر (باعتبارها أكبر دولة عربية من ناحية السكان، كما أنها الأسبق عملياً وثقافياً (أيامها)، وذلك يعطيها ميزة قد تهيئها للوكالة).

- ثم تركيا (لكونها أكبر واقوى دولة إسلامية، وإلى جانب ذلك فهي تحمل ذكرى آخر خلافة إسلامية، مما يمهد لها الفرصة تلقائياً).

وتمت مقابلة المرشحين بالوكالة من قبل الرئيس الأمريكي (فرانكلين روزفلت) على ظهر الطراد الأمريكي (كوينسي) حيث التقى الملك عبد العزيز آل سعود الذي قابله بالرجاء والتذلل باعتباره السيد القوي العادل، وكتب روزفلت عن هذا اللقاء (بدا لي الرجل طرازاً بدوياً من النوع المتوحش النبيل، يُذكِّر بأزمان غابرة وتقاليد تعود إلى عصور لم يعد لها الآن مكان). بعدها التقى ملك مصر فاروق ومن ثم رئيس تركيا (عصمت اينونو) الذي قال له بأنَّ العربي - في رأيه – مهيأ لأن يقاد ولا يقود ويساق بأمر الغالبين، ولا يدعى للتعاون على قدم المساواة معهم.

ويندهش الكاتب من أنه منذ ذلك الوقت وحتى هذه اللحظة لم يتغير رأي الولايات المتحدة كثيراً في تقييم المرشحين من المتعهدين بين أهل المنطقة. لكن في كل الأحوال يبقى كيان اسرائيل هو الوكيل المعتمد والوحيد للإمبراطورية الأمريكية؛ كونه الوكيل المأمون الذي يمكن الاعتماد عليه والاطمئنان إليه.

الحرب في تأريخ أمريكا:

يخصص الكاتب حجماً كبيراً من كتابه لتوضيح الأبعاد التاريخية والمستقبلية للإمبراطورية الأمريكية في خطط ساسة البيت الأبيض، ويركز على مفهوم (الحرب) في أذهان الرؤساء الأمريكان؛ لأنَّ الدولة الأمريكية قامت على العنف والحروب فلم تحدث حربٌ في القرن العشرين إلّا كانت طرفاً فيها، وهي القوة الوحيدة التي استعملت السلاح النووي، حتى أنَّ كل رئيس أمريكي كان يعرف أنَّ مكانته بين ساسة بلاده وفي تاريخها لا تكتمل إلّا بأن تكون له (حربه الخاصة) يثبت فيها (رجولته) ويظهر للشعب أنه وفيٌّ لعقيدته وممثلٌ لفحولة هذه العقيدة.

ويذكر الكاتب ما قاله الزعيم الهندي جواهر لال نهرو سنة 1958 وهو على فراش المرض: ((نحن محاصرون في منافسة بين قوتين أمريكيتين، واحدة شريرة غامضة تستعمل للتطويع والإخضاع «وهي وكالة المخابرات المركزية الأمريكية»، والثانية براقة وخداعة «تستعمل للغواية والإغراء» وهي هوليوود عاصمة السينما)). ومشكلتنا انه إذا فازت وكالة المخابرات المركزية أصبحت حريتنا مهددة، وإذا فازت هوليوود تصبح ثقافتنا مهددة. ويضيف إليها مساعده الأقرب إليه قوة ثالثة لابد أن تدخل في المعادلة وهي قوة (البنتاجون)، ويعلق نهرو على كلامه بأنَّ فقدان الناس لحريتهم وثقافتهم يتم بغير صخب وحتى دون أن يشعروا، لكن حينما يتحرك السلاح يثير ضجة تنبه الآخرين إلى أنهم معرضون لتهديد النار.

يستشهد الكاتب بمسلسل الحروب الأمريكية وهو بهذا العمل الصعب في مهمة التفتيش في الضمير الأمريكي التي يهدف من ورائها إلى تمكين العرب الوقوف مع آخرين في العالم – أن يجعلوا الفهم مقدمة لهدف لا يتزيد في مطلبه عن مجرد نزع غرور إمبراطوري يتبدى تصميمه على أن يكون خاتمة إمبراطوريات التاريخ إلى الأبد – أو طوال القرن الحادي والعشرين على الأقل.

لقد بدأ الزحف الإمبراطوري الأمريكي حركته في التسعينيات من القرن التاسع عشر مباشرة عقب انتهاء الحرب الأهلية التي كلفتها نصف مليون قتيل، وعندما حلت تسعينيات القرن العشرين كان الانتشار الإمبراطوري الأمريكي قد غطى وجه الكرة الأرضية، بعد أن فهمت واستوعبت دروسها من كل ما قابلته على أرض الواقع، أو من بطون الكتب، أو من المغامرات – بل ومن قصائد الشعر وأدب الرحلات، لذلك بدأت بالزحف نحو الإمبراطوريات الأخرى بمنطق مشروعية القرصنة، وبحكم واجبات الشرف والمهام المقدسة والحتميات الضرورية، إذ انطلق الزحف الأمريكي في المحيط الهادي

نحو الشواطئ البعيدة يتقدم وينتشر، فالمسألة ليست مسألة أمريكا، وإنما الهدف هو نشر الحرية وحمل البركة للجميع، وأنَّ على أعداء التوسع الأمريكي أن يفهموا أنَّ الحرية تليق فقط بالشعوب التي تستطيع حكم نفسها، وأمّا الشعوب التي لا تستطيع ذلك فإنَّ الواجب المقدس أمام الله يدعو لقيادتها إلى النموذج الأمريكي في الحياة، لأنه نموذج الحق مع الشرف.

وبعد ذلك يسهب الكاتب في الصراع الأمريكي مع القارة الأوربية والآسيوية لا سيما صراع الحربين العالميتين، وكذلك صراعها في الشرق الأوسط الذي يهدف إلى تواجدها في المراكز المهمة استراتيجياً في تلك المنطقة، والحصول على نصيب الأسد في ثروتها الهائلة نفطياً، والذي سوف يبين تفاصيله الدقيقة في الغزو الأمريكي للعراق.

هذا الإعصار الأمريكي:

أوضح هيكل هنا أسلوب أميركا الجديد في استخدام السلاح عبر فهم وتحليل مشهد الإعصار الأمريكي الذي يضرب المنطقة العربية عام 2003 فالحروب على طول التاريخ احتاجت إلى سواتر أو ذرائع قانونية وأخلاقية أو شبه قانونية وأخلاقية، وفي حالة الإمبراطورية الأمريكية فإنَّ استعمال القوة جاء مكتفياً بما لديه مستغنياً عن أية إضافات إنسانية جمالية.

ولغرض تأمين إمدادات أميركا من النفط والذي تحتل دول المنطقة، السعودية والعراق وإيران وإمارات الخليج مخزون أكثر من 70% من النفط الموجود تحت سطح الأرض، الأمر الذي يتطلب تثبيت الأوضاع في السعودية ودول الخليج، وترويض الجموح الإسلامي في إيران، والتعامل مع عراق خرج من حربه مع إيران مرهقاً. ومن أجل هذا الهدف فقد اعتمدت الاستراتيجية الأمريكية ضرب إيران بالعراق، والعراق بإيران، وقصدها استهلاك قوة بلدين لا يمكن الاطمئنان إليهما معاً على المدى الطويل، وَفق سياسة (الاحتواء المزدوج)، والتي عبر عنها هنري كيسنجر بقوله (هذه أول حرب في التاريخ أتمنى أن لا يخرج بعدها منتصر، وإنما يخرج طرفاها كلاهما مهزوم).

ولكن بعد أن اجتاز النظام العراقي الخطوط الحمراء حين اقتحم الأرض المحظورة لمواقع النفط في الخليج من خلال احتلاله الكويت عام 1990، فإنَّ جهد أمريكا تحرك على عدة محاور:

الأول: الاستفادة من صدمة غالبية العرب بمفاجأة غزو الكويت.

الثاني: التأكد من أنَّ العراق دخل إلى الصندوق وأنه لن يخرج منه.

الثالث: تكثيف الحشود العسكرية حول العراق.

الرابع: تشكيل تحالف عالمي واسع لشن الحرب على العراق.

الخامس: القيام بشن الحرب فعلاً ابتداء بتمهيد جوي تواصل أكثر من أربعين يوماً.

السادس: عندما انكسرت مقاومة العراق وبان أنَّ الحرب البرية بعد الضربة الجوية مجزرة شنيعة. والأخير أنَّ آلة الإعلام الأمريكية الضخمة وأجهزة العمل السرية راحت تحرض الداخل العراقي على الثورة، وبعد أن تمكن النظام من السيطرة على الوضع لم تتوقف الضربات الأمريكية فمن عاصفة الصحراء إلى ثعلب الصحراء.,، ولم تتوقف الحملة فكانت توصيات الساسة الأمريكان لإدارة كلينتون أن تضع كل جهود الأمة الدبلوماسية والسياسية والاقتصادية والعسكرية لتأكيد سيطرة الولايات المتحدة بخطوة أولى تضمن إزاحة صدام حسين، وقد أثيرت قضية العراق في إطار انتخابات الرئاسة الأمريكية سنة 2000 وكان قانون تحرير العراق وضرورة تنفيذه الفوري لما تتطلبه المصالح الأمريكية.

والحقيقة إنَّ القضية لم تعد قضية العراق، وإنما كان العراق بداية خيط وقع العثور عليه لإمبراطورية القرن الحادي والعشرين، وبعد فوز جورج بوش كما يتحدث الكاتب بحيل انتخابية وتلفيقات قانونية – وراءها خطط إمبراطورية، وسياسات مشى في إطارها أحد عشر رئيساً للولايات المتحدة على مدى نصف قرن من الزمن، تحرك فيها كل منهم بأسلوبه- وبمزاج إدارته – وفي أجواء زمنه، وقد مشى الرؤساء جميعاً على الطريق نفسه، ويذكر الكاتب إنجازاتهم في هذا الطريق ابتداء من فرانكلين روزفلت مروراً بجورج بوش الابن الذي سقطت في عهده الإمبراطورية الروسية الشيوعية وفي أجوائها حقق بحرب الخليج اختراقاً هائلاً في الشرق الأوسط حين تمكن من اصطياد العراق في فخ الكويت، وإذا المنطقة كلها حليف للولايات المتحدة وشريك لها، ثم تنازل التحالف والشراكة إلى درجة أدنى مع ارتهان العرب للسياسة الأمريكية، ومن ثم وصولاً إلى دور جورج بوش الابن ليرسي صرح مشروع البناء الإمبراطوري الذي أقام أهم ركائزه على ارض عربية- ومواقع عربية- وموارد عربية؛ لأنَّ معظم الدول العربية دخلت حظيرة التحالف في حرب تحرير الكويت، ثم مشت من الحظيرة إلى المسيرة وهي عملية صنع السلام مع إسرائيل ولا تزال مستمرة، وما بين الحظيرة والمسيرة لا خوف على العرب ولا خوف منهم .

إمبراطورية من تكساس

كان الهدف المعلن لحرب الخليج الثانية هو تحرير الكويت (نفط الخليج)، بينما كان هدفها الثاني درساً تعطيه أمريكا بالذخيرة الحية في فاعلية البطش لا ينساه أحد، ومغزى هذا الدرس أنْ يفهم العالم وليس فقط العراق قوة الإرادة الأمريكية، وكان تقدير بوش الابن على خلفية تحرير الكويت الحصول على رئاسة ثانية تتم فيها عملية التعزيز الإمبراطوري وتأكيد ثلاثة أهداف: سيطرة أمريكية مطلقة في العالم، سيطرة مباشرة على منابع النفط تتحكم في إنتاجه وتقنين استهلاكه، ونفاذ غائر وراسخ في منطقة تمثل قلب العالم ومفترق طرقه البرية والجوية والبحرية.

سارت السياسة الأمريكية منذ عام 1992 في ضوء الوثيقة التي تنص على: (إنَّ الولايات المتحدة الأمريكية عليها أن تعمل بكل جهدها حتى تتأكد من أنَّ أي قوة منافسة (أو صديقة) في أي مكان في العالم – لن تبلغ مكانة توازي مكانتها في القوة وعواملها...). وقد ركز أقطاب السياسة الأمريكية على أحكام السيطرة السياسية والعسكرية على الشرق الأوسط والسائد في اعتقادهم أنَّ إسرائيل هي الدعامة الرئيسة لخططهم في تلك المنطقة؛ لأنَّ الشرق الأوسط فيه دولتان لديهما المؤهلات اللازمة لخدمة مشروعهم: الأولى إسرائيل لأنها دولة تملك الكفاءة، والثانية تركيا لأنها بالحجم أقوى دولة في الإقليم، وفي الوقت نفسه دولة ليست عربية. واستمر الاستعداد لعصر ما بعد كلينتون من خلال ثلاث بؤر (جماعات المشروع الإمبراطوري – وصناعة البترول – وأصحاب الفكر والتنظير للاستراتيجيات والسياسات) حتى يستأنف المشروع الإمبراطوري مسيرته أشد حزماً وأسرع اندفاعاً.

فكرة الحرب على العراق

وحول قراءة هيكل لكتاب بوب وود وارد (بوش في حرب) الذي ظهر أواخر 2002 إذ يحاول أن يركز على صور محددة في هذا الكتاب لغرض الإجابة عن سؤال له عدة تفرعات ظل يشغله وهو: كيف؟ ومن؟ ومتى؟ وأين؟ ولماذا؟ تحول المشروع الإمبراطوري الأمريكي من الحرب ضد الإرهاب إلى حرب ضد العراق؟ وكيف انتقلت بؤرة الحوادث فيما جرى يوم 11 سبتمبر 2001 من نيويورك إلى كابول ثم من كابول إلى بغداد؟ ثم كيف وقع استبدال الأقنعة من ملامح الشيخ «أسامة بن لادن» إلى ملامح الرئيس «صدام حسين» بهذه السرعة؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة يستعرض محاضر اجتماعات مجلس الأمن القومي في البيت الأبيض فيقول أنه:

- بعد ظهر يوم 11 أيلول استمع الرئيس الأمريكي بوش إلى رأي رئيس جهاز المخابرات (تينت) الذي أبلغه أنَّ أسامة بن لادن والقاعدة وراء هذه العملية.

- في 12 أيلول دعا بوش مجلس الأمن القومي للاجتماع، وعرض وزير الدفاع رامسفيلد أسئلة حول خطة الهجوم على أفغانستان وتنظيم القاعدة.

- بعدها تعددت الاجتماعات لمناقشة موضوع توجيه ضربة عسكرية لتنظيم القاعدة في أفغانستان ولم يرد مطلقاً ذكر العراق في هذه المناقشات.

- وبعد أربعة أيام فقط من أحداث 11 أيلول، أي في اجتماع مجلس الأمن القومي يوم 15 أيلول طرح الرئيس الأمريكي جورج بوش على تشيني وبأول ورامسفيلد سؤالاً محدداً وهو: (هل حربنا هي ضد القاعدة أم ضد الإرهاب عموماً؟).

وبدأ وزير الدفاع رامسفيلد الإجابة بالقول (لا نستطيع أن نقيم تحالفاً مستمراً لمجرد ضرب القاعدة لأنه محدود ويمكن أن يتلاشى)، وأكّد نائب الرئيس تشيني هذا الرأي بشكل أوضح حين قال (إنَّ الجماعات الإرهابية مجرد (أشباح) وسننجح أكثر في العمل ضد (جسد) بمعنى أن نركز على الدول التي ترعى الإرهاب)، وكأنه كان يمهد لما طرحه بعد ذلك رامسفيلد وبشكل مفاجئ حين قال: أليس من الضروري أن نضرب العراق أيضاً وليس القاعدة فقط؟ العراق يمكن أن يكون هدفاً متجسداً أمامنا وقابلاً للضرب على أساس أنه من رعاة الإرهاب، صدام حسين ليس شبحاً وإنما بلد.

ونقل رامسفيلد رأي مجموعة البنتاغون العاملة معه من أنَّ صدام حسين هو خطر شديد؛ لأنه مصمم على حيازة أسلحة دمار شامل يمكن أن تصل إلى الجماعات الإرهابية وعليه فإنّ (ضرب العراق يمكن أن يبدأ بسرعة والخطط لدينا جاهزة) ولاحظ باول أنَّ خطط ضرب أفغانستان لم تكن جاهزة وإنما طرح رامسفيلد في الاجتماعات السابقة مجموعة أسئلة لإعداد خطة لضرب أفغانستان بينما خطة ضرب العراق جاهزة!

وفي اجتماع غير رسمي دعا إليه بوش لمناقشة أكثر هدوءاً في منتجع كامب ديفيد استفاض في الكلام فقال: «الشعب الأمريكي يريد عملاً كبيراً، مهولاً، انفجاراً عظيماً»، «لا أريد معركة واحدة، ولكن أريد حرباً ممتدة يشعر بها الشعب الأمريكي ويتأكد أننا نواصل الدفاع عنه حتى أقاصي

الأرض، لا يهمني اعتقال رجل واحد ولا اعتقال عدة رجال وإنما يهمني أن نتوصل إلى صيغة فعل تعطينا تفويضاً مفتوحاً للعمل حيث نشاء، لا يهمني أن يحاول أحد منا أن يضع حدوداً وهمية على فعل القوة الأمريكية، أو حدوداً مالية تقيد مجال عملها...».وقد روى كولن باول أنه «في هذه اللحظة أحسست أنَّ الرئيس يريد أن يقتل أحداً. رأيت أمامي رجلاً استيقظت لديه كل غرائز القتل من إحساسه بصدمة ما جرى في نيويورك ومن تحرقه للانتقام لها مهما كان الثمن». وخلال النقاش حول ما أورده الرئيس بوش بشان (الانفجار العظيم) قال نائب وزير الدفاع بول وولفويتز: «أنَّ ما يطلبه الرئيس لا يمكن أن يتحقق إلا في حالة واحدة، هي حالة أن نوجه ضرباتنا إلى الدول الراعية للإرهاب أو الدول الإرهابية والعراق أول القائمة بوجود صدام حسين على رأسه!».

ولقد أكد وجهة النظر هذه وزيره رامسفيلد كون العراق منهكاً ومعزولاً ويسهل الاستفراد به وإسقاط نظامه وفيه أهداف كبيرة يمكن ضربها بعمليات مبهرة، كما إن في العراق جوائز هائلة يمكن الاستيلاء عليها بأقل تضحيات متصورة وذريعة أسلحة الدمار الشامل تعطي المشروعية للحرب على العراق. ومع ذلك كله لم يفلح رامسفيلد في إقناع الرئيس بوش ومجلس الأمن القومي بنقل المعركة من أفغانستان إلى العراق، وكان الجميع يرون وجاهة ما يطرحه، ولكنهم كانوا يختلفون معه في التوقيت، وهكذا بدأت الحرب على أفغانستان في 11 أيلول 2001م وانتهت في 29 كانون الثاني 2002م لتبدأ مع نهايتها خطة احتلال العراق من أجل تحقيق هدفين هذه المرة، وهما الاستمرار في الحرب على الإرهاب لإثبات اقتدار أمريكا وسيطرتها على العالم، والثانية تأمين فوز بوش الابن في انتخابات الرئاسة القادمة.

وقد ركز جورج تنيت وجيمس بافيت على ثلاثة أعداء رئيسيين: الأول: الإرهاب والطليعة في جبهته العالمية تنظيم القاعدة، والثاني: الانتشار غير المسبوق لأسلحة الدمار الشامل واحتمال وصولها إلى دول مارقة أو جماعات متعصبة، والثالث: الصين التي أفلتت من عوائق التخلف والحصار وأصبحت دولة عظمى «عدوانية» على الشاطئ الآخر من المحيط الهادي.

ولم تكن في حسابات البيت الأبيض في تلك اللحظة أسلحة دمار شامل يملكها العراق ويراد نزعها منه، أو ديكتاتورية تخنق الشعب ويراد كسر قبضتها عن رقبته، ولم تكن هناك ديمقراطية وحرية غابت عن أرض العراق فجأة ويراد لها أن تشرق من جديد، ولم تكن هناك صلات بتنظيم القاعدة وخلاياها الإرهابية ويراد تصفيتها ضمن الحملة العالمية على الإرهاب؛ وإنما كانت هناك

أحوال إنسانية، وصراعات سياسية، ومطالب إمبراطورية، وضرورات بترولية، ولوازم انتخابية، وكله يتداخل ويختلط في وعاء طبخ القرار الأمريكي، وهذا يحتاج إلى محسنات ولمسات جمال ومغريات من قبيل نزع أسلحة الدمار الشامل وإبعاد الديكتاتورية وضمان حقوق الإنسان ومستقبل الديمقراطية.

ويؤكد الكاتب على الدور الذي لعبته المراكز والمؤسسات الفكرية وأصبحت تشكل حكومة الظل في أمريكا، بل وتأكد أنها الحكومة الخفية الحقيقية التي تصوغ القرار السياسي وتكتبه، ثم تترك مهمة التوقيع عليه للرئيس ومعاونيه الكبار في الإدارة، لذلك فقد نشأت في أعقاب الحرب العالمية الثانية عشرات ومئات المؤسسات تحمل أسماء أصحاب أكبر المصالح (روكفللر، فورد، راند، كارنيجي، وغيرهم).

ينتقل الكاتب بعد ذلك إلى مرحلة انتخاب جورج بوش الابن رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية والذي يصفه بـ(الإمبراطور- القيصر) فيقول انه لم يكن مقنعاً في أساس شرعيته، وشعر العالم أنَّ الولايات المتحدة الأمريكية قد سلّمت مقاليد السلطة فيها لرجل لا يستحق، وفي أحسن الظروف لا يعرف أنَّ وصوله إلى السلطة هو مشروع له أصحاب لديهم جدول أعمال جاهز يريدون طرحه. وفي مقدمتهم ديك شيني ودونالد رامسفيلد وكولن باول وهذا المشروع متفق عليه سلفاً ويمكن تلخيصه بالنقاط الثلاث الآتية: -

1. إمبراطورية أمريكية لا تقبل شراكة أو منافسة أحد.
2. سيطرة كاملة على موارد البترول و (مواقعه) والإشراف على إدارته والتحكم في توزيع حصصه.
3. حملة عالمية ضد الإرهاب تواجه خطراً يعلن عن نفسه وفي الوقت ذاته يوفر غطاءً أخلاقياً للإمبراطورية الأمريكية.

إنَّ الاتفاق على المشروع الإمبراطوري لم يمنع الخلافات والمشاكل في ترتيب الأولويات لدى إدارة بوش الابن عندما كانوا يجلسون على مائدة مجلس الأمن القومي في البيت الأبيض أواخر كانون الثاني وأوائل شباط 2001م. فقد توزعت وانقسمت الآراء والمناقشات وَفقاً للاتجاهات التالية:

- كان وزير الخارجية كولن بأول يرى أنَّ بند مكافحة الإرهاب هو الذي يصح أن يتصدر قائمة الأولويات، لأنه هو القادر قبل غيره على اجتذاب أوربا وآسيا والصين، ومن خلاله تكسب

الولايات المتحدة أوربا وتصل إلى تسوية للصراع العربي الإسرائيلي.

- بينما رأى نائب الرئيس ديك شيني أنَّ الرئيس الجديد لا يصح أن يقتفي خطوات سلفه السابق (كلينتون) ويهدر وقته في مشكلة الشرق الأوسط دبلوماسياً. وإنما يدخل إليها من خلال قضية مقاومة الإرهاب وليس عن طريق قضية فلسطين، لأن الأصدقاء العرب لا تهمهم فلسطين بقدر ما يهمهم (حماية نظمهم) وهم ينسبون إلى الإرهاب وحده أسباب قلقهم كله، وأنَّ الولايات المتحدة تستطيع أن تنفذ من خلال هذا القلق إلى مواقع البترول مباشرة دون تضييع الوقت في الصراع العربي الإسرائيلي.

- أمّا وزير الدفاع دونالد رامسفيلد ومساعده وولفوتيز ومدير التخطيط الإستراتيجي في وزارته (ريتشارد بيرل) فقد طرحوا ولأول مرة موضوع العراق كوسيلة لتحقيق أهداف الإمبراطورية الأمريكية. وهي أنَّ الوقت مناسب لتوجيه ضربة مباشرة للعراق كمدخل لسيطرة كاملة على البترول بدلاً من ضياع الوقت في قضايا مستعصية الحل مثل الصراع العربي الإسرائيلي، وأنَّ (تصفية) الحساب مع العراق يفتح مداخل إلى (تسوية)الحسابات القديمة مع إيران مما يمهد لخروج شرق أوسط جديد تحت قوة النيران الأمريكية في منطقة لا تفهم غير لغة (الخوف) على الرغم من استغراقها في الكلام عن السلام.

أسرار الغزو الأمريكي للعراق:

يضيف محمد حسنين هيكل أنه في تلك الأجواء المشحونة بالمناقشات عقب الأحداث المتسارعة في المنطقة ذهب (كولن باول) بنفسه في آذار 2001م إلى منطقة الشرق الأوسط ليقابل حكامها برسالة من الإدارة الجديدة مؤداها أنَّ (العراق هو الأزمة، وفلسطين هي المشكلة، والأزمة أولى بالعلاج قبل المشكلة). ولم يستطع باول إقناع أحد بمنطق هذه الرسالة، وفي الحقيقة فإنه هو نفسه لم يكن مقتنعاً بها، وكان رأيه ـ ومن تجربته السابقة في حرب الخليج الثانية أنَّ فلسطين هي (أم الأزمات) في المنطقة.

كان الرئيس الأمريكي الجديد بوش الابن حائراً بين هذه الأفكار ولذلك فإنَّ النصف الأول من سنة 2001م قد شهد تخبطاً في السياسة الداخلية والخارجية وكان كل مسؤول يحاول أنْ يجعل وزارته محمية محرمة على غيره. وظهر تشيني نائب الرئيس وكأنه الرجل الأول في الإدارة الجمهورية أمام الرئيس الجديد الذي مازال (عوده أخضر) وصورته مهزوزة أمام الرأي العام في الداخل والخارج.

وفجأة وفي صباح يوم 11 أيلول 2001م وقعت الواقعة: هجوم بالطائرات المدنية على عدة أهداف في نيويورك وواشنطن وسقوط برجي التجارة العالمي هشيماً تذروهما الرياح مع مقتل آلاف العاملين والموجودين فيه. وكذلك تدمير أحد أجنحة وزارة الدفاع الأمريكية، فقامت الدنيا ولم تقعد، وأعلنت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب الفعلية على الإرهاب.

وفي مطلع عام 2002م وقبيل انتهاء الحرب في أفغانستان وجد مستشار الرئيس للشؤون الداخلية ومسؤول حملته الانتخابية (كارل روفي) أنَّ أفغانستان لن تنفع الرئيس بوش الابن في الانتخابات الرئاسية القادمة، خصوصاً وأنه لا يتوقع مفاجآت سارة في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في الولايات المتحدة. ولذلك أجرى اتصالات ونقاشات مع رامسفيلد الذي أقنعه أنَّ العراق هو المسرح المهيأ لتجاوز هذه الهواجس الانتخابية، فقد رأى رامسفيلد أنَّ أفغانستان ليس فيها هدف واحد يثير خيالاً أو يغري بجائزة. ففيها 9 أهداف تم ضربها وعادوا إليها مرات ومرات وأصبح التكرار أضحوكة، وعليه لابد من ميدان آخر تثبت فيه أمريكا اقتدارها، والمكان هو العراق. وكان الرئيس بوش الابن مستعداً لتبني خيار الحرب على العراق في هذه المرحلة، ولذلك جاء خطاب حالة الاتحاد أمام الكونغرس الأمريكي يوم 29 كانون الثاني 2002م وهو يوم انتهاء الحرب على أفغانستان ليطلق الرئيس بوش الابن فيه شعار (محور الشر) موجهاً إصبع الاتهام بالتحديد إلى العراق وقائلاً بالنص: (إنَّ الولايات المتحدة الأمريكية لن تسمح للنظام الأشد خطورة في العالم أنْ يهددها بواسطة أسلحة الدمار الشامل التي يملكها ويطورها ويقدر على استخدامها).

أعدت هيئة الأركان خطة الحرب على العراق وطرح رامسفيلد الخطة للنقاش معترضاً عليها كونها تتطلب قوات ومعدات كثيرة في حين أنَّ العراق لا يمتلك سوى أسلحة ضعيفة وبلا طيران ولا يمتلك قوة بحرية. كذلك فإنَّ مناطق حظر الطيران الجوي قد أخرجت الجنوب من سلطة الجيش، وأصبح الشمال مستقلاً ولم يبقَ سوى الوسط الذي تسيطر عليه السلطة المركزية وهو منطقة فقيرة قياساً بنفط الشمال وجنوبه والذي هو بيد الأمم المتحدة أصلاً. وأضاف رامسفيلد: إنَّ العراق سيكون في المعركة القادمة داخل صندوق مقفل لأنَّ كل الدول المحيطة به هي ضده. وأستنتج قائلاً (أذن نحن في حالة تفوق كامل بري وجوي وبحري وفضائي وسياسي...)، في ضوء هذا كله أقترح رامسفيلد خطة جديدة لحرب سريعة ذات تأثير نفسي (الصدمة والرعب)، وأن يتم قطع رأس النظام بشكل عنيف إلى درجة ترغم جنرالات الحرس الجمهوري والجيش العراقي على الاعتقاد أنه لم تعد هناك فائدة للقتال.

خلال هذه الأحداث المتسارعة كانت بريطانيا تناقش موضوع المشاركة في غزو العراق، ولم يكن اتخاذ مثل هذا القرار سهلاً في مجتمع يجد في خطط السلاح والغزو ثقيلة على الرأي العام البريطاني. بل أن وزير خارجية بريطانيا السابق وزعيم الأغلبية في مجلس العموم روبن كوك قال لصديقه رئيس الوزراء البريطاني توني بلير (إنه في دهشة من مقولة أنَّ العراق يمتلك أسلحة دمار شامل، وأنَّ تجريده من هذه الأسلحة المدمرة هو المبرر القانوني والأخلاقي للغزو). ومع ذلك قرر بلير المشاركة في الحرب اعتقاداً منه أنَّ غزو العراق سيقع حتى وإنْ لم تقتنع بريطانيا.

وفي 12 أيلول 2002م ألقى الرئيس بوش الابن خطاباً أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة أعلن فيه أنه: أما أنْ ينصاع العراق بلا قيد ولا شرط لنزع أسلحة الدمار الشامل، أو أنها الحرب لأنَّ هذه الأسلحة جاهزة للتشغيل خلال 45 دقيقة بأمر من صدام حسين الذي هو أخطر رجل في العالم؛ لأنه يهدد الجميع، ولذلك فإنه يعطي الآخرين الحق في الدفاع عن النفس قبل أنْ يداهمهم. وبعد أربعة أيام وافق العراق على استقبال المفتشين الدوليين دون قيد أو شرط. ولكن العالم أستغرب من ردة الفعل الأمريكية للقرار العراقي. فقد جاءت بمنطق جديد يقول: إن العراق لم يقبل بعودة فريق المفتشين إلا بعد أن تمكن من إخفاء ما لديه من أسلحة دمار شامل. وكان هذا يعني أنَّ الولايات المتحدة لم يكن لديها الوقت لتسمع؛ لأنَّ اهتمامها كان محصوراً في الخطط العسكرية، فالقضية بالنسبة لها لم تكن وجود أو عدم وجود أسلحة الدمار الشامل، وإنما القضية هي الاستيلاء على العراق، وإسقاط النظام فيه واحتلال البلد.

بعد ان ألقى بوش خطابه 29 يناير 2003 لم يبق لأحد في رئاسة أركان الحرب المشتركة سبباً يدعو للشك في أنَّ الحرب على العراق قادمة دون تأخير، وأنَّ أسلحة الدمار الشامل على اختلاف أنواعها جاهزة للتشغيل في ظرف 45 دقيقة بأمر صدام حسين الذي هو أخطر رجل في العالم لأنه يهدد الجميع. ولم تتوقف اللقاءات بين جهات مخابراتية عراقية وأخرى أمريكية في أنقرة قبل شن الحرب ومن ضمن تلك اللقاءات ما طرحه الطرف العراقي سؤال مؤداه: هل هم مستعدون للتعامل مع قصي صدام حسين إذا تنازل له والده عن الرئاسة؟ وهل تعترف واشنطن به في هذه الحالة وتتعامل معه على أساس جديد في علاقات البلدين.

كانت الصورة في مجلس الأمن فوضى عامة، فالمعلومات الواردة من واشنطن إلى نيويورك تكشف للوفود جميعاً أنه على الرغم من استعداد العراق لقبول عودة المفتشين إليه فإنَّ الولايات المتحدة وبريطانيا تقومان الآن بالتعطيل بادعاء عدم الجدوى؛ لأنَّ النظام في العراق لم يقبل بعودة

المفتشين إلّا بعد أن تمكن من إخفاء ما لديه من أسلحة دمار شامل. بينما وقفت وفود الدول الكبرى والأمانة العامة تطالب بإعطاء فرصة، كما أنَّ الرأي العام في أوربا وأمريكا يطالب بذلك. ولكن أقطاب الإمبراطورية الأمريكية الجدد كانوا صروحاً من الصخر لا تتأثر وتطل على ما ترى أمامها وتسمع دون استجابة، وبدا أنه عناد تحكم في العقل، وأنه غرور القوة أخذ بأصحابه إلى منتهاه. وكانت الإدارة في واشنطن تلح على امتلاكها معلومات سرية عن أسلحة الدمار الشامل العراقية.

طلب بوش تفويضاً من الكونغرس باستخدام القوة المسلحة وحصل على التفويض يوم 11 تشرين الأول 2002م. وفي ظرف ساعات كان وزير الدفاع رامسفيلد يطلب من هيئة أركان الحرب المشتركة أن تتحرك مجموعة من الجيش الخامس وفرقة جنود المارينز الأول إلى منطقة الخليج العربي. وكان وزير الخارجية كولن باول غير مرتاح للاندفاع العسكري بدون وجود غطاء شرعي له تقف معه أوربا وغيرها؛ ولذلك قابل الرئيس بوش يوم 16 أكتوبر لوحده. وأوضح له أنهم بتصميمهم على المضي في حرب ضد صدام حسين دون قرار من الأمم المتحدة وفي وجه معارضة بارزة في مجلس الأمن سوف يظهر الولايات المتحدة في حالة تحدٍ لمجلس الأمن وللميثاق مما يؤثر على مشروعية عملهم في العراق، ويظهره وكأنه مسألة طمع إمبراطوري في ذلك البلد وموارده. كما أنَّ الحرب بهذه الطريقة سوف تؤثر على (أخلاقية) التصرف الأمريكي و(قانونيته)، وسوف تغذي المعارضة الشعبية للسياسة الأمريكية والتي تزداد أتساعاً حتى في أقرب العواصم الأوروبية ومنها (لندن). أمّا من الجانب العسكري فأضاف باول أنَّ أول درس تعلمه في الخدمة العسكرية (أن القوة الأمريكية دائماً في خدمة مبدأ وهذا المبدأ يلزمه غطاء قانوني وغطاء أخلاقي)؛ لأنه بدون هذا الغطاء سيتحول القتال إلى (مجرد قتل) لا يختلف فيه جنرال على كتفه أربعة نجوم عن مرتزق يمسك بيده بسكين. وهناك فرق كبير أن يكون المحارب قاتلاً وبين أن يكون مقاتلاً.

أقتنع بوش بكلام باول الذي قاد معركة سياسية في مجلس الأمن للحصول على قرار من مجلس الأمن صدر في 8 نوفمبر 2002م برقم 1441 ولم يكن هناك تفويض بالحرب، لكنه كان قراراً بصيغة حازمة فهم منه أنه يراد تخويف العراق لكي تمر الأزمة بسلام. لكن إدارة البيت الأبيض فهمته على أنه تفويض مفتوح تتصرف بالسلاح كما يحلو لها. ولذلك وحسب رأي هذه الإدارة لابد من غزو العراق من دون النظر إلى (الشكليات) باعتبار أن النتائج في حد ذاتها تعطي للقتال ذرائعه، فحين يصحو العالم ليجد أنَّ نظام صدام حسين قد سقط وأنَّ العلم الأمريكي يرفرف فوق

بغداد، فإنَّ أمريكا ستكون مأخوذة باستعراض النصر والعالم مشغول بأمر واقع له سطوته، والدول التي ترددت وتقاعست ستكون معزولة ومكسورة الخاطر.

طلب بوش يوم 21 كانون الأول تمركز خمسين ألف جندي في الخليج العربي. وفي يوم 2 كانون الثاني 2003م بدأ وزير الدفاع رامسفيلد في تحريك مجموعات من هذه القوات إلى مناطق الحشد في الكويت في الوقت الذي أعلنت الحكومة البريطانية رسمياً استدعاء 1500 جندي احتياط إلى الخدمة مع تحريك حاملة طائرات. وفي اليوم نفسه قدم هانز بليكس ومحمد البرادعي تقريريهما. وقال كبير المفتشين بليكس في ختام تقريره أنهم لم يعثروا على أسلحة دمار شامل في العراق رغم مضي أربعة أسابيع من التفتيش في مناطق شاسعة وأكد الحاجة إلى (وقت إضافي لإنجاز المهمة). وتبعه البرادعي بالمطالبة بستة أشهر للتأكد من الحقائق.

قدم النظام العراقي تقريراً تفصيلياً عن كل ما لديه من أسلحة دمار شامل، وكان التقرير من (11) ألف صفحة، حمله الوفد العراقي بثلاث نسخ إلى مبنى الأمم المتحدة، وجرى تسليمها إلى رئيس مجلس الأمن، لكنه لم تكد تنقضي دقائق حتى جرى اقتحام مكتب رئيس مجلس الأمن بواسطة مجموعة من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وطلبهم بإصرار أن تسلم إليهم النسخ الثلاث التي قدمها الوفد العراقي، وحاول رئيس مجلس الأمن أن يناقش، لكنه أُبلغ بأنَّ الموضوع لا يحتمل حلاً وسطاً، وأنَّ عليه تسليم النسخ الثلاث، وخرجت مجموعة (الإغارة) على مجلس الأمن من مبنى الأمم المتحدة، ومعها النسخ الثلاث من تقرير (بغداد). وفي صباح اليوم التالي تلقت وفود الدول المعنية نسخاً من التقرير ملعوباً فيها، وبحجج وادعاءات أمريكية مكشوفة لأنَّ التلاعب بالتقرير العراقي كان القصد منه إخفاء دور الشركات الأمريكية (وأهمها خمس وعشرون شركة عملاقة) هي التي باعت للعراق تلك الأسلحة ومن بينها أسلحة الدمار الشامل أيام حربه على إيران، وكانت أمريكا تهدف إلى طمس هذه الحقيقة وإلّا أضعفت موقف الإدارة في مجلس الأمن بما يسهل وقوف وفود الدول بوجه الوفد الأمريكي. ومن القصص المثيرة في هذا الملف عن مسعى العراق شراء 300 طن من اليورانيوم وهو الكعكة الصفراء التي تصنع منها الأسلحة النووية، وزاد بعضهم أنَّ أبرز خطاب رسمي من أحد وزراء حكومة النيجر يتحدث عن صفقة اليورانيوم بغير لبس، وبعد التقصي للتوصل إلى حقيقة هذا الأمر من قبل الحكومة الأمريكية تبين أنَّ القصة ملفقة وأنَّ الوزير المنسوب إليه توقيع الخطاب الرسمي لم يشغل أيَّ منصب في التاريخ الذي ورد أعلى الخطاب.

وفي 28 كانون الثاني عاد بليكس إلى مجلس الأمن ليطلب منحه مدة إضافية لاستكمال عمله خصوصاً وأنه (يلقى استجابة في الإجراءات من جانب العراق) فاشترط الأمريكيون ثلاثة أسابيع على أن يفتح العراق أجواءه لطائرات التجسس (يو 2) بمسح وتصوير ما تريده على أرض العراق الذي وافق على هذا الشرط، وكانت الصور تذهب إلى وزارة الدفاع لخدمة مخطط الغزو. وبدأ قطار الحرب يزداد سرعة يوماً بعد يوم، وتصاعد معه رفض إعطاء فرصة للمفتشين ولم يؤيد الرئيس بوش في توجيه ضربه للعراق سوى 39% من الرأي العام الأمريكي حسب استطلاعات الرأي.

لم تأبه الإدارة الأمريكية لأي رأي يتقاطع مع خططها لغزو العراق وحددت ساعة الصفر للبدء بالهجوم في آخر ضوء من يوم 20 آذار 2003م. ومع ذلك فإن الرئيس الأمريكي بوش الابن وقع أمراً رئاسياً بقتل صدام حسين بضربة عاجلة ولو أدّى الأمر إلى استباق ساعة الصفر، وذلك على أساس معلومات قيل له أنَّ مصدرها الآن في موقعه يتابع عن قرب تحركات الرئيس العراقي صدام حسين داخل بغداد. ولم تمض ساعات حتى اتصل رئيس المخابرات (تينيت) على عجل بالبيت الأبيض ليقول أنهم يعرفون الآن بالضبط أين يوجد (صدام حسين). وأعطى (جورج بوش) موافقته لتبدأ ضربة الحرب الافتتاحية قبل موعدها بأربع وعشرين ساعة، والأمل أن يقتل (صدام حسين) بحكمة أنَّ (قتل رجل واحد يطمئن جيشاً كاملاً).

وفي رغبتها الجارفة للحسم العسكري فإنَّ قيادة القوات استعملت رخصة كثافة النار بأكثر مما كان مقدراً في الخطة الأصلية، وهكذا فإنَّ ضربة الصدمة والرعب على (بغداد) تكررت وزادت وكان الضرب في بعض الليالي مروعاً. وطبقاً لتقرير هيئة عمليات القيادة المشتركة فقد قامت الطائرات الأمريكية بـ (41404) طلعة جوية وأطلقت (19948) قذيفة موجهة إلى جانب (9251) قذيفة غير موجهة تغطي بالنار دوائر واسعة دون هدف بالذات، وكان ذلك مخيفاً.

وينهي هيكل كتابه بالحديث عن لقاء الغرباء. لقاء القوات الأمريكية مع أهل العراق وتلك الحساسية الشديدة التي غلفته مع مقولة الجنرال فرانكس وهو يرد على فشل هذا اللقاء (أن قواتي كانت تشكيلات محاربة، واجبها البحث عن العدو وقتله وليس الابتسام في وجهه وأخذه بالأحضان)، ولم تمض أيام على الغزو واحتلال بغداد في 9 نيسان 2003 حتى وجدت قوات الغزو أنَّ جميع الذرائع القانونية والأخلاقية التي دفعت بها إلى العراق غير صحيحة، بل إن القائلين بها كانوا أول من يعرف أنها (غير صحيحة). فلا توجد أسلحة دمار شامل ولم يكن للنظام في بغداد أمكانية تهديد الولايات المتحدة أو أوربا أو جيرانه في ظرف (45) دقيقة، ولم يكن للعراق صلة

بتنظيم القاعدة. وأهم من هذا كله فإنَّ الشعب العراقي لم يكن سعيداً بهذه القوات التي جاءت لكي (تحرره). ولقد صدقت مقولة الجنرال مايرز إلى وزير الدفاع رامسفيلد: أنا أعرف أنَّ ما نحن مقبلون عليه هو معركة بين طائرة من طراز (ف15)، وطائرة من الورق التي يلهو بها الأطفال، ولكن ذلك ليس من شانه أن ينسينا أننا سوف ننزل من أعالي الجو إلى التراب وتلك معركة أخرى مختلفة .

لقد طرح جورج بوش وأقطاب إدارته عدداً من الأهداف مختلطة ببعضها البعض إلى درجة غيبت اليقين في مسألة غزو العراق:

- إنَّ إسقاط صدام جزء أساس من الحرب ضد الإرهاب، من خلال المعلومات التي روجتها إسرائيل حول صلة أحد المتهمين بأحداث 11 سبتمبر 2001 وهو محمد عطا بالمخابرات العراقية.

- إنَّ النظام العراقي لا بدَّ من عقابه على تهديد جيرانه والدليل غزو الكويت 1991.

- والطرح الثالث أنَّ النظام لم يقم بغزو الكويت فقط حيث تم معاقبته على ذلك فعلاً لكنه قبل ذلك غزا إيران، لكن هذه الفكرة قد يكون لها ردٌّ فعل عكسي لأنَّ غزو إيران كان بتحريض ومساعدة من أمريكا وأصدقائها، وأدار مجهودها رامسفيلد شخصياً بوصفه وزير الدفاع في حكومة ريجان، وعليه فإنَّ فتح هذا الملف طردٌ ملغومٌ ينفجر في وجه من يفتحه.

- إنَّ النظام طغى واستبد بشعبه، ولذلك وجب إسقاطه باسم الشعب العراقي ولصالحه، إلّا أنَّ هذا الادعاء يعطي أمريكا حقاً وسلطة ليس لهما سندٌ في القانون الدولي.

- والطرح الأخير هو امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل ومعها وسائل صاروخية تنقلها إلى بعيد وهو يمثل خطراً على الإقليم أو إمكانية أن تنتقل هذه الأسلحة إلى جماعات إرهابية متعاونة مع نظامه.

يمثل العراق مركز دائرة واسعة في ضوء ما طرحه دونالد رامسفيلد للمشروع الإمبراطوري بشكل ظاهر وصريح، وهذه تمثل فرصة تاريخية لغرض السيطرة على مركز الدائرة (بغداد) ليكون النقطة الثابتة في الدائرة الأوسع المحيطة به، وكذلك لتصفية ما تبقى من مواقع المقاومة أي (إيران وسوريا) دون الحاجة إلى استعمال السلاح؛ لأنَّ وجود قوات أمريكية في العراق يعني حصار إيران من ناحيتين: أفغانستان والعراق، كما أنَّ سوريا في وضع أصعب؛ لأنها ستكون مفتوحة من الشرق

بوجود أمريكي في الجوار المتصل بها إلى درجة الالتحام، ومحاصرة من الشمال بتركيا والوجود الأمريكي القائم فعلاً على أراضيها وبمناطق الأكراد شمال العراق وأمريكا هناك معهم إلى جانب إسرائيل من الجنوب، وكذلك كون النظام الأردني ليس صديقاً مغرماً بالنظام السوري، وإضافة إلى وجود عناصر في لبنان لا يرضيها تحكم سوريا في القرار اللبناني، وبضربة واحدة تتشكل خريطة جديدة مثالية تماماً للشرق الأوسط تقوم الولايات المتحدة بتشكيلها ورسمها وتنظيفها من جيوب كارهة لأميركا ما زالت تجادل وتعاند.

وهذا الأمر أصبح ماثلاً للعيان بشكل واضح، وهو يؤكد المقدمة التي افتتح بها الكاتب كتابه من خلال استشرافه الدقيق لمستقبل المنطقة، والتي لخصت المشروع الإمبراطوري الأمريكي الذي ينطلق من أهداف أمريكا التوسعية والذي لا يزال مستمراً، وكانت نقطة انطلاقه المحورية من العراق.

هوية الكتاب

اسم المؤلف: محمد حسنين هيكل

عنوان الكتاب: الإمبراطورية الأمريكية والإغارة على العراق

قراءة: عبد الخالق كاظم ابراهيم - باحث وطالب دكتوراه في اللغة العربية.

عدد الصفحات: 844

دار النشر: دار الشروق، القاهرة

تأريخ النشر: تشرين الأول - اكتوبر 2022

ملاحظة:

الآراء الواردة في هذا البحث لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر المركز، إنما تعبر فقط عن وجهة نظر كاتبها

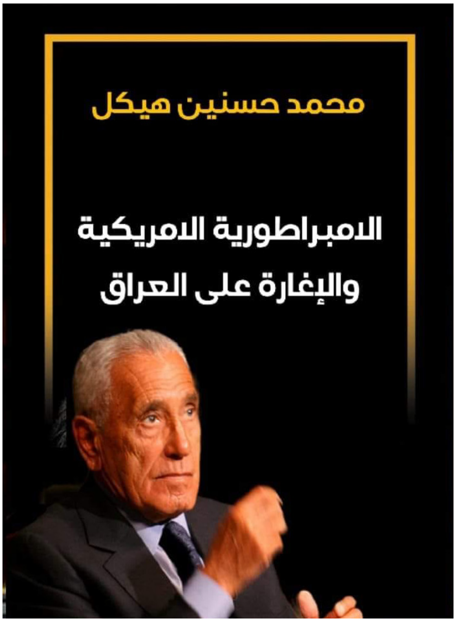

عن المركز

مركز البيدر للدراسات والتخطيط منظمة عراقية غير حكوميّة، وغير ربحّية، تأسس سنة 2015م، ومُسجل لدى دائرة المنظمات غير الحكومية في الأمانة العامة لمجلس الوزراء.

ويسعى المركز للمساهمة في بناء الدولة، عن طريق طرح الرؤى والحلول العملية للمشاكل والتحديات الرئيسة التي تواجهها الدولة، وتطوير آليات إدارة القطاع العام، ورسم السياسات العامة ووضع الخطط الاستراتيجية، وذلك عن طريق الدراسات الرصينة المستندة على البيانات والمعلومات الموثقة، وعن طريق اللقاءات الدورية مع الجهات المعنية في الدولة والمنظمات الدولية ذات العلاقة. ويسعى المركز لدعم الإصلاحات الاقتصادية والتنمية المستدامة وتقديم المساعدة الفنية للقطاعين العام والخاص، كما يسعى المركز لدعم وتطوير القطاع الخاص، والنهوض به لتوفير فرص عمل للمواطنين عن طريق التدريب والتأهيل لعدد من الشباب، بما يقلل من اعتمادهم على المؤسسة الحكومية، ويساهم في دعم اقتصاد البلد والارتقاء به.

ويحرص أيضاً للمساهمة في بناء الانسان، باعتباره ثروة هذا الوطن، عن طريق تنظيم برامج لإعداد وتطوير الشباب الواعد، وعقد دورات لصناعة قيادات قادرة على طرح وتبني وتطبيق رؤى وخطط مستقبلية، تنهض بالفرد والمجتمع وتحافظ على هوية المجتمع العراقي المتميزة ومنظومته القيمية، القائمة على الالتزام بمكارم الاخلاق، والتحلي بالصفات الحميدة، ونبذ الفساد بأنواعه كافة، إدارية ومالية وفكرية وأخلاقية وغيرها.

حقوق النشر محفوظة لمركز البيدر للدراسات والتخطيط

www.baidarcenter.org

info@baidarcenter.org